بسم الله الرحمن الرحيم

شرح عنوان الحكم لأبي الفتح البستي

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد

[الشريط الأول]

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه ، وعلى آله وأصحابه أجمعين

أما بعد:

هذه قصيدة نافعة ، ومفيدة ومليئة بالحِكم المتنوعات والتوجيهات النافعات ، والإرشادات المسددات ، في الأخلاق والآداب وأعمال القلوب ، مما يتحقق من العناية بها فهما وعملا ، نفع عظيم ، وثمار كبيرة ، وهي تُعرف بعنوان الحكم ، لما اشتملت عليه من الحكم العظيمة البالغة ، النافعة المفيدة

نظمها شاعر مجيد ، وعالم له مكانته ، واعتباره، قال عنه الذهبي رحمه الله (شاعر وقته وأديب ناحيته)

وهو أبو الفتح علي ابن محمد ابن الحسين البستي المولود عام 330هـ والمتوفى عام 400هـ

وهذه المنظومة اعتنى بها منذ القدم طلاب العلم حفظا ومذاكرة ، وعقدت مجالس لتذاكر مضامينها ، والعنأية بالحكم العظيمة التي اشتملت عليها

وسنقرأ من هذه المنظومة ونعلق على أبياتها ما تيسر ، سائلين الله تبارك وتعالى أن ينفعنا أجمعين ، وأن يوفقنا لأحسن الأخلاق، وأن يهدينا إليها لا يهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سيء الأخلاق ، لا يصرف عنا سيئها إلا هو

يقول العلامة أبو محمد علي بن محمد بن الحسين البستي رحمه الله تعالى في عنوان الحكم

بسم الله الرحمن الرحيم

زيــادَةُ المَرء فــي دُنيــاهُ نقصــانُ ...... وربْحُــهُ غَيرَ محض الخَير خُســرانُ

وكُل وِجــدانِ حَظٍّ لا ثَبــاتَ لَــهُ...... فإنَّ مَعنــاهُ فــي التَّحقيق فُقْــدانُ

يا عامِــراً لخَــرابِ الدَّهرِ مُجتهِــداً...... باللهِ هــل لخَــرابِ العمر عُمــرانُ

ويا حَريــصاً على الأموالِ تَجمَعُهــا...... أُنْسِيــتَ أنَّ سُرورَ المــالِ أحْــزانُ
زَعِ الفــؤادَ عــنِ الدُّنيــا وزينتهــا ......فصَفْوُها كَدَرٌ والوَصــلُ هِجْــرانُ
وأَرعِ سَمعَــكَ أمثــالاً أُفَــصِّــلُها ...... كمــا يُفَصَّــلُ يَاقــوتٌ ومَرْجــانُ

زيــادَةُ المَرء فــي دُنيــاهُ نقصــانُ ...... وربْحُــهُ غَيرَ محض الخَير خُســرانُ

بدأ الناظم رحمه الله تعالى بقوله (زيــادَةُ المَرء فــي دُنيــاهُ نقصــانُ *** وربْحُــهُ غَيرَ محض الخَير خُســرانُ)

أي أن المرء إذا كانت أرباحه أرباحا دنيوية بحتة ، لا اهتمام له بالآخرة ، ولا عناية له بها ، الدنيا أكبر همه ، ومبلغ علمه، فهذه الأرباح التي يحصلها والزيادات ، ثراء وكثرة ، في المال وسعة فيه ، هو في حقيقة الأمر نقصان

زيــادَةُ المَرء فــي دُنيــاهُ نقصــانُ ...... وربْحُــهُ غَيرَ محض الخَير خُســرانُ

أي كل الأرباح التي يحصلها ، إن لم تكن محض الخير ، أي الخير الخالص فهي خسران ، لأنها إما زائلة أو صاحبها زائل عنها ، بينما محض الخير وهو أعمال البر وصنوف الطاعات التي يتقرب بها المسلم إلى الله عز وجل ، ووجوه الإحسان فهذه تُعدّ زيادة لا نقصانا ، ورفعة للعبد ، في دنياه وأخراه ، والناظم رحمه الله تعالى ينبه بهذا البيت الذي استهل به هذه القصيدة ، قصيدة الحكم ، على أن الواجب على المسلم أن لا تكون الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه ، فلا يهتم إلا بها ولا يشتغل إلا لأجلها ، ولا يعمل إلا لتحصيلها ، فمن كان بهذه الصفة ، فكل زيادة يحصلها وكل ربح يجده هو في الحقيقة نقصان ، إلا ما كان محض الخير من أنواع البر وصنوف الطاعات ، التي كلما ازداد منها العبد ، زاد علوا وفضلا ورفعة ونبلا

وقد جاء في الحديث في مسند الإمام أحمد ، وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (والله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتكم) ، فتأمل كيف أن الدنيا تنافس عليها والهمة مشتغلة بها فقط متجهة إليها ، كيف أنها سبيل هلكة ، وهو المعنى الذي عبر عليه الناظم بقوله (نقصان) أي أنها تصل بصاحبها إلى النقصان ،

والهلكة

قال:

وكُل وِجــدانِ حَظٍّ لا ثَبــاتَ لَــهُ...... فإنَّ مَعنــاهُ فــي التَّحقيق فُقْــدانُ

كل وجدان ، يقال: وجد يجد وجدانا ، الشيء يبحث عنه الإنسان فيجده ، يحصله ، فتحصيله للشيء الذي يبحث عنه يقال عنه وجدان ، فكل وجدان أي كل تحصيل للحظوظ والأطماع والرغبات وما يريده الإنسان ، كل وجدان حظ لا ثبات له ، أي لا يثبت معك ، ولا يبقى ولا يدوم ، فإن معناه في التحقيق فقدان ، لأنك وإن حصّلت ، وقتا ما وفترة معينة ، لن يدوم لك ولن يبقى معك ، فإذن كل وجدان ، أي كل تحصيل لحظ من الحظوظ ، ومطلب من المطالب ، من صفته أنه لا ثبات له، يعني لا يبقى معك ولا يدوم لك فإن معناه في التحقيق فقدان

وكأنه يشير بذلك إلى مثل هذه الدنيا ، في كل المكتسبات التي يحصلها الإنسان ، أو ينالها من أمور الدنيا ، البحتة ، وقد قال الله تعالى {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا }[الحديد-20]

فإذن كل ما يحصله العبد ويجده مما لا ثبات له ، ولا بقاء ولا دوام له ، فإنه في التحقيق فقدان أي باعتبار أن هذا الذي سيؤول إليه أمره

وفي القران يقول الله عز وجل {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى }[الحديد-131]، تأمل سبحان الله قوله {زهرة الحياة الدنيا} يعني كل ما عندهم وكل ما حصلوه اختصر في هذا المثل الكاشف لحقيقة الأمر {زهرة الحياة الدنيا}والزهرة كما لا يخفى تكون لها النضارة في وقت ما ثم سرعان ما تذبل وتنتهي ، فهو مثل عجيب جدا ، {زهرة الحياة الدنيا} الزهرة لها نضارة في وقت ما ثم سرعان ما تذبل تلك الزهرة وتنتهي

يا عامِــراً لِخَــرابِ الدَّهرِ مُجتهِــداً...... باللهِ هــل لِخَــرابِ العمر عُمــرانُ

(يا عامرا لخراب الدار) وفي بعض النسخ (الدهر) (مجتهدا) يعني في هذه الدنيا الفانية يعني منشغلا بعماراتها منصرفا عن عمارة الآخرة ، فأصبح اهتمامك منصبا على عمارة هذه الدنيا

فيقول ناصحا من كانت هذه حاله (يا عامرا لخراب الدار – أو الدهر- مجتهدا) يعني في عمارة هذه

الدنيا التي مآلها إلى الخراب ونهايتها إلى الفناء (بالله هل لخراب العمر عمران) أي أنك باشتغالك بعمارة الدنيا وفي الوقت نفسه منصرفا عن عمارة الآخرة أنت في حقيقة الأمر تعمل على خراب عمرك ، تبني دنياك وتخرب عمرك ، فيقول منبها (هل لخراب العمر عمران) يعني هل من يعمل على خراب عمره هل هو في الحقيقة يعمر أو يهدم؟

ويا حَريــصاً على الأموالِ تَجمَعُهــا...... أُنْسِيــتَ أنَّ سُرورَ المــالِ أحْــزانُ

(ويا حريصا على الأموال تجمعها) أي كانت هي شغلك الشاغل ، واهتمامك البالغ (أنسيت أن سرور المال أحزان) يعني هل انكبابك على جمع المال ، وانصرافك بكليتك إليه هل أنسيت أن سرور المال أحزان ، يعن اللذة التي يحصلها المرء في تحصيله للأموال والملذات التي أيضا تكتنف ذلك ، أنسيت أنها أحزان؟ أي فيما تؤول إليه وتفضي بصاحبها إليه، وهو ينبه هنا رحمه الله على الحال التي يؤول إليها من كان بهذه الصفة حريص على المال ، والمال هو أكبر همه ولو كان على حساب دينه لا يبالي ، والنبي صلى الله عليه وسلم ضرب لنا في هذا الباب مثلا عجيبا رواه الإمام أحمد في المسند وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) كيف يكون الأمر لو جيء بذئبين جائعين ووضعا في زريبة غنم ، كيف ستكون ويصير حال تلك الغنم في تلك الزريبة ، مع وجود هذين الذئبين الجائعين ، ومعلوم أن الذئب إذا هجم على الأغنام لا يكتفي بأخذ واحدة منها ، يأكلها ويمضي ، بل معروف بالإفساد يأكل ويفسد ، يقتل هذه ويجرح هذه ويصيب تلك ، فلو وضع ذئبان جائعان في زريبة غنم ستكون الغنم جميعها ما بين قتيل وجريح ، وفي الغالب لن يسلم منها واحدة

فهذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام للشخص الذي انصب حرصه على المال والشرف ، وصار هذا اهتمامه ومطلبه في هذه الدنيا المال أو الشرف ، رئاسة أو زعامة إلى غير ذلك

فحرصه على المال وحرصه على الشرف رئاسة وزعامة وغير ذلك لا يبالي معها بما خرب من دينه وضاع من تقربه لربه ، فكما أن الذئبين الجائعين يفسدان في الغنم ، أعظم إفساد ، إذا جُعلا معها في زريبة ، فمثل هذا عندما يكون قلب الإنسان منصبا في اهتمامه على جمع المال وتحصيل الشرف ، فهذا يترتب عليه من الآثار الكثيرة في ضياع دينه وفساد أيمانه

زَعِ الفــؤادَ عــنِ الدُّنيــا وزينتهــا ......فصَفْوُها كَدَرٌ والوَصــلُ هِجْــرانُ

ثم يقول رحمه الله ناصحا (زع الفؤاد عن الدنيا) ومعنى (زع) أي كف (زع الفؤاد عن الدنيا) أي كفه عن الدنيا ، كف قلبك عن الانصراف إلى الدنيا والانكباب عليها امنعه من ذلك (زع الفؤاد عن الدنيا وزينتها*** فصفوها كدر والوصل هجران) صفو الدنيا كدر ، لأن كل ما يحصله الإنسان من أمور الدنيا كدر في تحصيله وأيضا كدر في الخوف من فقده (فصوفها كدر والوصل هجران) الوصل أي القرب من كل شيء منها هو في الحقيقة هجران

وهو بهذا البيت والأبيات التي قبله يحذر من الانكباب على الدنيا ، والانشغال بها وأن تكون الدنيا هي مبلغ علم الإنسان وغاية مقصوده ، ولا يعني ذلك تعطيل الانتفاع بالمباح منها ، أو تعطيل كسب الرزق ، وفي الدعاء قال عليه الصلاة والسلام (اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا) ، فهذا الذي يُذم أن تكون الدنيا أكبر هم الانسان ومبلغ علمه ، أما كون الإنسان يأخذ نصيبا من الدنيا لا يشغله على الآخرة ولا يصرفه عن الاهتمام بما خلق له ، بل يجعله عونا له على ما خلق لأجله وأوجد لتحقيقه فهذا يحمد ويؤجر عليه ، ويدخل في عمل العبد الصالح ، إذا احتسب في كسب الرزق وتحصيل المال أن يكف نفسه عن الحاجة إلى الناس ، وأن –أيضا– يتحقق بذلك غنى أهله وأولاده ، وعدم احتياجهم (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) فهذا كله لا يذم لكن الذي يذم ، هو انكباب المرء على الدنيا وجعلها أكبر همه ، ومبلغ علمه

أحسنْ إلى النّــاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ ...... فطالَمــا استعبدَ الإنســانَ إحسانُ

يا خادمَ الجسم كم تشقــى بِخدمته ...... أتطلب الربح فيمــا فيــه خسران]

[أقبل على النفس واستكمل فضائلها ...... فأنــت بالنفس لا بالجسم إنســان]

وإنْ أســاءَ مُســيءٌ فلْيَكنْ لكَ في ...... عُــروضِ زَلَّتِهِ صَفْــحٌ وغُفْــرانُ

وكُنْ علــى الدَّهر مِعواناً لــذي أمَلٍ ...... يَرجــو نَداكَ فإنَّ الحُــرَّ مِعْــوانُ

واشدُدْ يَدْيــكَ بحَبــلِ اللهِ مُعتَصِمــاً ...... فإنَّــهُ الرُّكْنُ إنْ خانَتْــكَ أركــانُ

مَــنْ يَتَّقِ اللهَ يُحْمَــدُ فــي عَواقِبِــه ...... وَيكفِهِ شَرَّ مَــنْ عزُّوا ومَــنْ هانُوا

مَــنِ استعــانَ بغَيرِ اللهِ فــي طَلَــبٍ ...... فــإنَّ ناصِــرَهُ عَجــزٌ وخِــذْلانُ

[مــن كان للخير منّاعــا فليس لــه ...... علــى الحقيقة إخــوان وأَخــدانُ]

مــَنْ جادَ بالمــالِ مالَ النَّاسُ قاطِبَــة ...... إلَيــهِ والمــالُ للإنســان فَتّــانُ

مَنْ سالَمَ النّاسَ يسلَمْ مــن غوائِلِهِمْ ...... وعــاشَ وَهْوَ قَريرُ العَينِ جَــذْلانُ
مَنْ كانَ للعَقلِ سُلطــانٌ عَلَيهِ غَــدا ...... وما علــى نَفسهِ للحِرْصِ سُلطــانُ
مَنْ مّدَّ طَرْفاً لفَرطِ الجَهلِ نحــو هَوى ...... أغضــى على الحَقِّ يوماً وهْوَ خَزْيانُ

يقول رحمه الله

وأَرعِ سَمعَــكَ أمثــالاً أُفَــصِّــلُها ...... كمــا يُفَصَّــلُ يَاقــوتٌ ومَرْجــانُ

أي بعد هذه التقدمة في التحذير عن الانكباب على الدنيا والافتتان بها وجعلها أكبر هم الانسان ، بعد تحذيره رحمه الله من ذلك ، بدأ يصوغ حكما وينثر وصايا عظيمة ، في أبيات ، كل بيت منها بمفرده ، يحمل حكمة عظيمة ووصية نافعة

وبدأ أول ما بدأ باسترعاء الاهتمام ، والحث على الانتباه ، لهذه الوصايا بقوله : (وأرع سمعك أمثالا أفصلها *** كما يفصل ياقوت ومرجان) لا يمدح نفسه ولا يمدح أيضا شعره ، ولكنه يستحث السامع ويستنهض الهمم لحسن الاستفادة وجميل الانتفاع ، ولهذا يقول (وأرع سمعك) أي اسمع بإنصات وتأمل وعنأية دقيقة بفهم ما يقال لك ، فإن في ذلك نفعا عظيما ، وفائدة كبيرة

(وأرع سمعك أمثالا أفصلها *** كما يفصل ياقوت ومرجان)

والياقوت والمرجان نوعان من الحلي والجمال والزينة

أحسِنْ إلى النّــاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ ...... فطالَمــا استعبدَ الإنســانَ إحسانُ

بدأ أولا بالحث على الإحسان ، بكل وجوه الإحسان ، القولي والفعلي ، والإحسان أمر الله جل وعلا به العباد وعد عليه عظيم الثواب {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[البقرة-195] فالناظم يحث على الإحسان (أحسن إلى الناس) أي بما تستطيع أن تحسن إليهم به ، وهذا ندبت إليه الشريعة وحث عليه الإسلام في نصوص كثيرة جدا

قال (تستعبد قلوبهم) أي بإحسانك إليهم يحصل من آثار ذلك وثماره أن تستميل قلوبهم وتستلطفها وتستعطفها ، بحيث لا تكون معك فضة ولا غليظة ، بل تكون معك في أجمل ما يكون ، من تعامل وأدب وتقدير ، (تستعبد قلوبهم) أي يكونوا لك بسبب إحسانك إليهم مثل حال العبيد أي من حيث الاحترام والتقدير والتوقير ونحو ذلك

(فطالما استعبد الانسان إحسان) أي كثيرا ما كان ذلك ، أن استعبد الانسان إحسان الآخرين إليه ، ومراد الناظم من هذا البيت واضح أن الإحسان إلى الآخرين فيه ثمار ومن ثماره ، أن من تحسن إليه لا ينسى معروفك ولا يغيب عنه إحسانك فيذكرك بالجميل ويعاملك بالحسنى ، ويحترمك ويعرف لك إحسانك هذا هو مراده من حيث الجملة

لكن البيت بهذه الصياغة التي أوردها رحمه الله تعالى عليه انتقاد من عدة وجوه

أما الأول فمن جهة التعبير بقوله (تستعبد قلوبهم) وقوله (استعبد الانسان) فالعبارة هنا ليست سديدة ولا يناسب التعبير لمثل ذلك وإنما يقال (تستلطف) أو (تستميل) أو (تكسب) أو نحو ذلكم من العبارات ، حتى وإن كان معنى العبودية ليس مقصودا، لكن تجنب العبارة مطلوب

ثانيا أن من يحسن إلى الناس ، ليس هذا مقصوده وإنما مقصوده الفوز برضا الله ، وثوابه ، فالإحسان إلى الناس قربة من القرب ، وباب من أبواب اكتساب الثواب، فمن يحسن إلى الناس لا يحسن إليهم لأجل هذا الأمر وإنما يحسن إليهم طلبا لرضا الله {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا }[الانسان-9] ثم تأتي الآثار والثمار ، تباعا ، ليست أصالة ولا قصدا، قصد الانسان بإحسانه إلى الناس أن يفوز برضا الله، وقد مرت معنا الآية الكريمة {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[البقرة-195] فهو يحسن لأن الله يحب المحسنين، يحسن إلى الناس لأن الله يحب من يحسن إليهم ،ويحسن إلى الناس يريد أن يرضى ربه عنه ، ويريد من الله أن يثيبه على ذلك، لا يحسن إليهم من أجل أن يستميل قلوبهم أو غير ذلك وإن كانت تأتي تلك الأشياء تبعا لا أصالة وقصدا

ثالثا أن الأمر من حيث واقع الناس ، فالناس معادن ، منهم من ينفع فيه الإحسان ، ويفيد فيه الجميل فلا ينسى جميلا ولا ينكر إحسانا ومعروفا، ومن الناس من سرعان ما ينسى الجميل ، وينكر ما عليه من معروف لما طبع عليه من لؤم، فإذا كان يحسن إلى الناس ليستميل قلوبهم ، سيصادف في الناس أناسا ذوي أكباد غليظة وذوي طبع لئيم فلا يستميله إحسان ولا يؤثر فيه معروف، إذا كان هذا قصده سيصدم ، بينما إذا كان قصده التقرب إلى الله عز وجل لا يبالي في أثر ذلك في الناس من حيث تقديرهم له ، أو اعترافهم بجميله أو ذكرهم لإحسانه لا يبالي بذلك لأنه ما قصد هذا أصلا، وإنما قصد التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، وطلب رضاه جل في علاه

ثم قال

يا خادمَ الجسم كم تشقـــى بِخدمته ...... أتطلب الربح فيمــا فيــه خسران

في هذا البيت يذم من كانت حاله الاهتمام بخدمة نفسه من الناحية البدنية ، فيعتني بخدمة نفسه من حيث الناحية البدنية من حيث المظهر من حيث الصورة من حيث الشكل ، ولا يبالي بالاهتمام بنفسه من حيث روحه وفؤاده وزكاء نفسه ، وصلاح قلبه ، هذا لا يهتم به ، اهتمامه بالظاهر وأما الباطن فهو غير مهتم به ، فيقول لمن كانت هذه صفته ، يا خادم الجسم وهو يقصد من كانت له مبالغة في خدمة الجسم ، (كم تشقى لخدمته) و(كم) تأتي للتكثير ، يعني كم تشقى لخدمته في تضييعك لأوقات كثيرة التي تنصب على الاهتمام بالمظهر دون المخبر

والله عز وجل عندما ذكر في القران الزينة الظاهرة قال {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } [الأعراف-26] وفي الدعاء المأثور (اللهم زينا بزينة الأيمان واجعلنا هداة مهتدين) فإذا كان الإنسان يهتم بشكله ومظهره وهيأته ويضيع الحقيقة والمخبر فهو في الحقيقة إنما يحصل خسرانا ولهذا قال الناظم (أتطلب الربح فيما فيه خسران؟)

وهذا الاشتغال بالجسم الذي هذه نتيجته نظير ما ذكره في البيت الثالث (يا عامرا لخراب الدهر مجتهدا *** بالله هل لخراب العمر عمران) هذا نظيره ذاك في العمر عموما والدنيا عموما وهذا في الجسم ، ومن الناس -فعلا- كما أشار الناظم من يهتم بصحته وبدنه ولا يهتم بدينه ، وقد قيل قديما عجبا لمن يتجنب بعض الأطعمة المباحة خوف مضرتها ، ولا يتجنب الذنوب خوف معرّتها ، تجد بعض الأشخاص يقول :أنا عندي حمية ، حمية من أطعمة مباحة لو أكل منها لا يأثم شرعا، ولا يضره إطلاقا في دينه ، لكنه يقول من باب الحمية حفظا للبدن وحفظا للصحة فيتجنب أطعمة مباحة ، خوفا على بدنه ثم لا يتجنب كثيرا من الذنوب ، خوف معرتها ، وهذا البدن الذي جنبه تلك الأطعمة المباحة خوفا عليه ، ورغبة في الإحسان إلى البدن ، من باب أولى أن يكون هذا الإحسان للبدن بتجنيبه الذنوب، لأنه إن لم يمنع البدن من الذنوب عذب عليها يوم القيامة ، فمن الإحسان لهذا البدن أن يجنبه الذنوب ، لأن إيقاع البدن في هذه الذنوب ، موجب للعقوبة

بينما بعض الناس لا يفقه هذا الأمر فيشتغل بعمارة بدنه ، ومظهره وهيئته وشكله ، ولا يعتني أبدا بما يتعلق بعمارة دينه ، وباطنه ، وفي الحديث (إن الله لا ينظر إلى أموالكم ولا إلى صوركم وإنما ينظر إلى أعمالكم ، وقلوبكم) أو كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ...... فأنـــت بالنفس لا بالجسم إنســـان

ثم أتم رحمه الله المعنى السابق بقوله (أقبل على النفس) يعني يا هذا الذي انشغلت بخدمة البدن ، أقبل على النفس واستكمل فضائلها ، أي أدبها بالآداب الفاضلة والأخلاق الزاكية، والخلق الرفيع وزمها بزمام الشرع

(أقبل على النفس واستكمل فضائلها ***فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان)

لأن الحركة حركة الجسم ، لعبا وقياما وقعودا وأكلا وشربا إلى غير ذلك هذه كلها يشترك مع الانسان فيها بهيمة الأنعام ، لكن امتاز الانسان بهذه النفس العلية الرفيعة المتخلقة بالأخلاق الفاضلة ، والآداب الزاكية تميز بذلك ، ولهذا إذا ذهبت هذه المعاني على النفس أصبح مثل الأنعام بل أسوء حالا منها ، كما قال الله تعالى {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا }[الفرقان-44]

وإنْ أســـاءَ مُســـيءٌ فلْيَكنْ لكَ في ...... عُـــروضِ زَلَّتِهِ صَفْـــحٌ وغُفـــرانُ

هذا البيت يبين لك الطريقة المثلى في التعامل مع من يخطئ في حقك ، ويسيء إليك ، كيف تتعامل معه؟ ولاسيما تلك الزلة العارضة ، لأن الزلة التي تكون من الناس

منها زلة عارضة ، ومنها -لا- إساءات متواصلة ، هذه لها حكم وتلك لها حكم ، فهو يتحدث رحمه الله على الزلة العارضة ، يعني شخص دائما يعاملك المعاملة الطيبة ولا ترى منه إلا الإحسان لكن في يوم من الأيام أخطأ معك في كلمة ، انفلتت منه عبارة لا تناسب مقامك ولا تليق في حقك أو أساء إليك بفعل أو قصر في واجب من الواجبات التي ترى أنك جدير بأن تُعامل بها هذه تسمى زلة عارضة ، لأنك تعرف هذا الشخص دوما ، بالتعامل الكريم والخلق الفاضل لكنها زلة عارضة ، فكيف يكون التعامل مع ما كان من هذا القبيل

يقول (وإن أساء مسيء فليكن لك في *** عروض زلته صفح وغفران) يعني مثل هذه الزلات قابلها بالصفح والغفران ، {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[آل عمران-134]، بينما إذا كان الشخص له صفة أخرى دائم الإساءة ودائم التجني ودائم العدوان ، فهذا يعمل الانسان على كف أذاه ، والسلامة من شره وعدوانه، هذا معنى قوله رحمه الله (وإن أساء مسيء فليكن لك في *** عروض زلته صفح وغفران)

وكُنْ علـــى الدَّهر مِعواناً لـــذي أمَلٍ ...... يَرجـــو نَداكَ فإنَّ الحُـــرَّ مِعْـــوانُ

(وكن على الدهر) أي على مر الأيام ، (معوان) أي كثير العون ، (لذي أمل) أي من يؤمل حاجة عندك، أو مطلبا من طريقك ، (يرجو نداك) يعني يطمع في كرمك ، وإحسانك، (فإن الحر معوان) الحر يطلق على ضد العبد الرقيق ، ويطلق أيضا على الخيار من الناس ، وهو المراد هنا ، (فإن الحر معوان) أي خيار الناس هذه صفتهم ، حريصون على معاونة الآخرين ، ومساعدتهم

واشدُدْ يَدَيْـــكَ بحَبــلِ اللهِ مُعتَصِمـــاً ...... فإنَّـــهُ الرُّكْنُ إنْ خانَتْـــكَ أركـــانُ

(واشدد يديك بحبل الله معتصما) أي كما قال الله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }[آل عمران-103] وحبل الله قيل دينه ، وقيل كتابه وقيل سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والأية تنتظم ذلك كله،(واشدد يديك بحبل الله معتصما) أي كن بحل الله معتصما مستمسكا به ، محافظا عليه ، معتنيا به ، أشد العناية ، (فإنه الركن) أي المرجع والملاذ والمعتمد (إن خانتك أركان) فالركن الوثيق والعروة الوثقى التي من استمسك بها نجا ومن حافظ عليها سلم ، هو دين الله سبحانه وتعالى ، والاعتصام بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

مَـــنْ يَتَّقِ اللهَ يُحْمَـــدُ فـــي عَواقِبِـــه ...... وَيكفِهِ شَرَّ مَـــنْ عزُّوا ومَـــنْ هانُوا

ثم حث رحمه الله على التقوى وبين ثمرتها العظمى بقوله (من يتق الله يُحمد في عواقبه) أو (يحمَد في عواقبه) (من يتق الله) أي يحقق التقوى بأن يجعل بينه وبين ما يخشاه من سخط الله وعقابه وقاية تقيه ، وذلك بفعل الأوامر وترك النواهي ، وهذه هي حقيقة التقوى وأحسن ما قيل في تعريفها قول طلق ابن حبيب رحمه الله :تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله خيفة عذاب الله.

يقول رحمه الله (من يتق الله يُحمد في عواقبه) أو (يحمَد في عواقبه) كلها صحيح ، أي أنه سيفوز بالعواقب الحميدة والمآلات السعيدة كما قال الله تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }[الأعراف -128] وكما قال الله عز وجل {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ }[الطلاق-2-3] وكما قال الله تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا }[الطلاق-4]، فالذي يتقي الله سبحانه وتعالى يحمد العاقبة ، لأن عاقبة المتقي حميدة في الدنيا والآخرة ، (ويكفيه شر من عزوا ومن

هانوا)، (ويكفيه) أي الله سبحانه وتعالى لان الله مع المتقين حافظا وناصرا ومؤيدا ومعينا ، فمن يتقي الله يكفيه أي الله سبحانه (شر من عزوا ومن هانوا) يكفيه شر كل أحد ، سواء كان هذا المسيء إليه صاحب عز و منعة وقوة ، أو كان دون ذلك فالله يكفيه ، شر كل ذي شر وشر كل دابة

مَــنِ استعــانَ بغَيرِ اللهِ فــي طَلَــبٍ ...... فــإنَّ ناصِــرَهُ عَجــزٌ وخِــذْلانُ

(من استعان بغير الله) أي طلب العون ، من غير الله واعتمد قلبه على غيره ، ملتجأ إليه ، معتمدا عليه ، فإن من كان بهذه الصفة يخذل ، ويوكل إلى الشيء الذي اعتمد عليه ، وفي الحديث (من تعلق شيئا وكل إليه) {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا }[الجن–6] فالذي يستعين بغير الله في طلب ، (فإن ناصره عجز وخذلان) فهذا الذي سيحصله ممن طلب من جهته العون والنصر هو في الحقيقة عجز وخذلان

ثم قال

مــن كان للخير منّاعــا فليس لــه ...... علــى الحقيقة إخــوان وأَخــدانُ

المناع هو البخيل الشحيح فمن كان بهذه الصفة مناعا للخير أي بخيلا شحيحا ، مقترا لا ينفق مع ما آتاه الله ووسع عليه من المال والرزق ، فمن كان بهذه الصفة فشأنه كما قال الناظم أنه (ليس له على الحقيقة إخوان وأخدان) أي لا يكون له إخوان وأخدان ، والخدن الصديق ، والصاحب ، أي لا يكون له إخوة محبين له وأصدقاء أوفياء معه ، كل هذا لن يحصله (من كان للخير مناعا فليس له *** على الحقيقة إخوان وأخدان)

والناظم هنا ينبه على الآثار عندما يكون الانسان شحيحا بخيلا منوعا ، لأن هذا قصد الانسان ، أما الذي ينفق لا يكون قصده بالإنفاق أن يكون له إخوان وأخدان ، وإنما يقصد بالإنفاق التقرب إلى الله ، والفوز برضاه، سبحانه وتعالى ، والإنفاق الذي يبذله شيء يقدمه ، ليلقاه ، يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى ، على حد قوله {وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ }[البقرة–223]

مــَنْ جادَ بالمــالِ مالَ النَّاسُ قاطِبَــة ...... إلَيــهِ والمــالُ للإنســان فَتّــانُ

(من جاد بالمال) من كان منفقا للمال باذلا سخيا كريما ، فالناس تميل إليه، وتحبه ، وهذا أيضا إشارة إلى شيء من الآثار التي تكون من ثمار الجود والبذل والإحسان ، فلما ذم البخر وذكر شيئا من ثمره ،

مدح البذل والجود والعطاء وذكر أيضا شيئا من أثره

قال (من جاد بالمال مال الناس قاطبة *** إليه والمال للإنسان فتان)

أي المال فتنة كما قال الله سبحانه وتعالى {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[التغابن-15]

ثم قال

مَنْ سالَمَ النّاسَ يسلَمْ مــن غوائِلِهِمْ ...... وعــاشَ وَهْوَ قَريرُ العَينِ جَــذْلانُ

أي من يعامل الناس بالرفق والمسالمة والدفع بالتي هي أحسن ، فإنه (يسلم من غوائلهم) غوائلهم أي عدوانهم ، وبغيهم وظلمهم وفي الحديث لفظ آخر ولكنه قريب في المعنى (لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه) ، (من سالم الناس يسلم من غوائلهم) أي من عدوانهم وظلمهم وبغيهم

(وعاش وهو قرير العين جذلان) أي سيعيش حياة سعيدة ، عندما كان بهذه الصفة في التعامل مع الناس بالمسالمة والدفع بالتي هي أحسن ، سيعيش قرير العين جذلان أي فرحان ، والله سبحانه وتعالى يقول {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ }[فصلت-34]

ثم قال رحمه الله

مَنْ كانَ للعَقلِ سُلطــانٌ عَلَيهِ غَــدا ...... وما علــى نَفسِهِ للحِرْصِ سُلطــانُ

(من كان للعقل سلطان عليه) يعني يتعامل مع الأمور بالعقل ، والرزانة والكياسة والفطنة والأناة والنظر في العواقب ، من كان بهذه الصفة لا أن يتعامل مع الأمور بالشهوات وتتبع الملذات والاندفاع والعجلة

(من كان للعقل سلطان عليه غدا) أي صار (وما على نفسه للحرص سلطان) أي لن يكون للحرص سلطان على نفسه سيسلم من تسلط الحرص على نفسه ، وقد مر معنا ذم الناظم للحريص على المال فقال

(ويا حريصا على الأموال تجمعها)

فلن يكون للحرص سلطان عليه ، إذا كان يتعامل ويزن الأمور بالأناة والرفق والحكمة والتدبر في العواقب والنظر في المآلات فإنه بهذه الصفة سيحمد العاقبة ، بخلاف من يتعامل مع الأمور بالطيش والتهور والاندفاع ، فهذا إنما يجني على نفسه لتسلط هذه الأشياء عليه

ثم قال

مَنْ مَدَّ طَرْفاً لفَرطِ الجَهلِ نحـــو هَوى ...... أغضـــى على الحَقِّ يوماً وهْوَ خَزْيانُ

(من مد طرفا لفرط الجهل نحو هوى) أي مد طرفه أي بصره نحو الهوى ، أي اشرأبت نفسه للأهواء وتطلعت إليها ، ومالت إليها، ماذا سيترتب على ذلك ، عندما تكون النفس بهذه الصفة والعياذ بالله ، مشرئبة للأهواء ميالة إليها ممتد طرفه إلى نيلها وتحصيلها ماذا سيترتب على ذلك ؟

قال (أغضى على الحق يوما وهو خزيان) أي سيكون في المقامات التي ينتصر فيها للحق ، سيتثاقل ويتثبط ولن ينهض وهذا أثر من آثار ركون الإنسان للشهوات ، وميل نفسه إلى الشهوات ، إذا جاء مقام من مقامات الانتصار للحق سيتثاقل ويغضي الطرف عن ذلك لماذا لأن طرفه أصبح مهتم بالشهوات والملذات وتتبعها والبحث عنها فمن كان بهذه الصفة (سيغضي على الحق يوما وهو خزيان) أي ذليل

ونكتفي بهذا القدر من هذه الأبيات

ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا أجمعين بما سمعنا وأن يوفقنا لكل خير وأن يهدينا إليه صراطا مستقيما

الطالب: أبو الفتح علي ابن محمد بن الحسين البستي

قال هو من شعراء القرن الرابع بدأ حيته معلما للصبيان في بلدته بست

قال وبست كما ذكرها أبو عبد الله ياقوت الحموي في معجم البلدان مدينة من بلاد كابل

الشيخ: بست البلد الذي ولد فيه هذا الناظم وإليه ينسب ، يقال له (البستي) نسبة إلى هذا البلد وهو من بلاد الأفغان

الطالب: قال وقد خرج منها أعيان الفضلاء كالخطابي أحمد ابن محمد البستي ، وأبو حاتم محمد ابن حبان إمام الأئمة وأبو الفتح علي ابن محمد البستي

قال عمران ابن موسى ابن محمد الطولقي في أبي الفتح

إذا قيل أي الناس في الأرض زينة *** أجبنا وقلنا أبهج الأرض بستها

فلو أنني أدركت يوما عميدها *** لزنت يد البستي دهرا وبستها

قال: واشتهر البستي بنثر وشعر يغلب عليه التجنيس والبديع ويجري مجرى الأمثال والحكم ومن

قصائده القصيدة النونية المشهورة بنونية البستي وعنوان الحكم التي هي من ثلاثة وستين بيتا، وافقت عمر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهي من أروع وأشهر قصائده بل من أشهر قصائد الحكمة والزهد ، وقد انتشرت في الآفاق وتناقلها الحفاظ وحفظها الطلاب وتناولها العلماء بالشروح

قال: من شعره قوله

إذا تحدثت في قوم لتؤنسهم *** بما تحدث من ماض ومن آت

فلا تعيدن حديثا إن طبعهمُ *** موكل بمعادات المعادات

الشيخ: المعادات يعني ما يعاد من الكلام ويكرر

وقال كذلك:

إذا أحسست في فهمي فتورا *** وحفظي والبلاغة والبيان

فلا ترتب بفهمي إن رقصي *** على مقدار إيقاع الزمان

قال: وبالجملة فمحاسنه كثيرة وشعره في غاية اللطافة والرقة توفي رحمه الله تعالى سنة 400هـ ببخارى

هذا ما تيس جمعه وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد واله وصحبه

الشيخ: فيه كلمات له قصيرة فيها حكم وعبر ليست نظما

الطالب: من نثره قوله (من أصلح فاسده أرغم حاسده) و (من أطاع غضبه أضاع أدبه) ، وقال كذلك (عادات السادات سادات العادات) وقال أيضا (من سعادة جدك وقوفك عند حدك) وقال كذلك (أجهل الناس من كان للإخوان مذلا وعلى السلطان مدلا) وقال كذلك (الفهم شجاع العقل)

الشيخ: على كل له كلمات جميلة ، وأيضا له في غير هذه المنظومة أبيات كانت محل ثناء أهل العلم وتناقلهم وإفادتهم منها

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا أجمعين بالإفادة من هذه الحكم ، والانتفاع بما فيها ، من عبر وعظات وما فيها من فوائد عظيمة نافعات وأن يوفقنا أجمعين لكل خير إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين